

الوساطة الأسرية: مقومات نظرية وتقنيات منهجية¹ الغالي أحرشاو²

ملخص

يصعب الحسم حالياً في مستقبل الوساطة الأسرية وكيف سيكون مآلها وتطورها، وهل ستعرف تزايداً في ممارساتها وأنواعها أم ستبقى عند مستواها الضعيف الذي لا تمثل فيه إجراء إلزامياً؟ كما يصعب التكهّن بطبيعة العلاقة المستقبلية بينها وبين الطلاق بمفهومه القضائي التقليدي؟ في محاولة استحضار بعض الوقائع المرتبطة بهذه التحديات، سنعمل في هذه الورقة عن "الوساطة الأسرية: مقومات نظرية وتقنيات منهجية"، على تقديم خلاصة تركيبية حول ظروف ظهور هذه الممارسة في ميدان تسوية النزاعات الأسرية ومقوماتها النظرية الفلسفية والأخلاقية، مع التركيز على أهم تعاريفها وأهدافها ونماذجها، فضلاً عن التوصيف الدقيق لأبرز اختياراتها المنهجية وشروط ممارستها كآلية لبنيّة العلاقات الأسرية. وسنهي الورقة بموجز عن الانتقادات الأساسية للوساطة مع التنصيص على بعض أفاقها المستقبلية.

الكلمات المفتاحية: الوساطة الأسرية؛ الوسيط؛ نماذج الوساطة؛ تقنيات الوساطة؛ أماكن الوساطة.

Family mediation: Theories and methods El Rhali Aharchaou

Abstract

It is difficult to decide about the future of family mediation and its upcoming development, how it will grow in its forms and practices, or it will remain at its weak level, in which it is only a secondary procedure? It is also difficult to predict the nature of the future relationships between family mediation and divorce in its traditional judicial meaning. Through the evocation of some facts related to these challenges, we will try in this paper on "Family mediation: theoretical characteristics and methodological techniques", to present a synthetic summary of the circumstances of the emergence of this practice in the field of the settlement of family conflicts and its theoretical, philosophical and moral characteristics. We will emphasise also in its most important definitions, objectives and models, as well as the precise description of its main methodological choices and the factors of its use as a mechanism to structure family relationships. We will conclude this paper by presenting the main criticisms of mediation and indicating its future prospects.

Keywords: Family mediation; Mediator; Mediation techniques; places of mediation.

¹ لقد ساهم الباحث بهذه الورقة في أشغال الندوة الوطنية التي نظمها مركز الرؤى الوردية والوساطة الأسرية بقصر المؤتمرات بفاس أيام 16 و 17 يناير 2016.

² شعبة علم النفس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب.

مقدمة

كثيرا ما يتعرض الزوجان للطلاق والانفصال، وكثيرا ما يتنازع الوالدان حول حضانة الأطفال، وكثيرا ما يحرم الأجداد من رؤية أحفادهم... باختصار ناذرا ما تسلم الأسرة في المغرب وغيره من بلدان المعمور من مثل هذه الفواجع والأزمات الإنسانية التي ينقطع معها حبل التواصل والحوار وتنتشج معها الأعصاب والانفعالات وتحتدم معها الخلافات والنزاعات. فالأسرة بقدر ما تعيش فترات هدوء واستقرار بقدر ما تجد نفسها معرضة من حين لآخر لفترات توتر وصراع. فهي نظام حي تتقاطع فيه أساليب إرضاء المصالح الفردية والمشاركة مع نعرات الاحتكاك والنزاع بين أعضائها. فمشاكلها لا تعود فقط إلى تغيرات طبيعية بفعل مجيء الطفل الأول أو فقدان الشغل أو الإحالة على التقاعد أو الإصابة بمرض مزمن، بل إن استدامة عدم التوازن بين أعضائها عادة ما ينفث على مشاكل أعوص من قبيل الطلاق والانفصال والتفكك والانحصار.

نقترح في هذه الورقة عن "الوساطة الأسرية: مقومات نظرية وتقنيات منهجية" خلاصة تركيبية لظروف ظهور هذه الممارسة في ميدان تسوية النزاعات الأسرية ومقوماتها النظرية الفلسفية والأخلاقية، مع استحضار أهم تعاريفها وأهدافها ونماذجها ثم توصيفا دقيقا لأبرز اختياراتها المنهجية وشروط ممارستها كآلية لبنيّة العلاقات الأسرية. وسنهي الورقة بموجز عن الانتقادات الأساسية للوساطة مع التنصيص على بعض آفاقها المستقبلية.

1. المقومات النظرية للوساطة الأسرية

يمكن اعتبار ثمانينيات القرن الماضي فترة بداية اعتماد الوساطة الأسرية كممارسة ناجعة لتسوية النزاعات الأسرية على أسس تفاوضية، وبالخصوص تلك التي تتعلق بالطلاق والانفصال. وهذه فكرة سنوضحها من خلال استحضار سياق ظهورها وأسسها الفلسفية والأخلاقية ثم أهم تعاريفها وأهدافها ونماذجها:

* سياق الظهور ومبرراته:

الواقع أن الوساطة الأسرية حتى وإن كانت تتميز بتطورات وتحولات خاصة بها، فهي تندرج ضمن حركة واسعة لبلورة صيغ بديلة لتسوية النزاعات، انطلقت أوائل ستينيات القرن العشرين بالولايات المتحدة الأمريكية. فتجاربها الأولى التي شملت كثيرا من مدن هذه الأخيرة (Los Angeles في 1973؛ Atlanta، 1974) تشعبت بالحركات الاجتماعية المدافعة خلال تلك الحقبة عن توسيع الحقوق المدنية والمساواة بين الأجناس والأعراق والأنواع. وتكمن مبررات هذا الظهور في (Robert، 1997؛ Tap، 2010):

- قصورات النظام القضائي وتعقد المساطر ومحدودية دور المحاكم في تسوية النزاعات؛
- تأكيد أعمال كثير من المنظرين الأكاديميين على أهمية الوساطة (Floberg، 1985؛ Sandfr، 1976)؛

- الشهادات الإيجابية لعدد من الوسطاء والخبراء في ميدان الوساطة (Coogler، 1978؛ Floberg et Taylor، 1984؛ Hayness، 1981؛ Irving، 1980)؛

- وأخيرا التحولات التي لحقت مورفولوجية الأسرة، حيث أصبحت الهيمنة منذ خمسينيات القرن العشرين لصالح الأسرة النووية التي أحلت الصلة العاطفية محل روابط الدم والتضامن. وهي الهيمنة التي كرستها الإصلاحات التشريعية حول الطلاق.

إذن فبعد تمركزها في المدن الأمريكية على يد وسطاء أمثال عالم النفس Coogler والناشط الاجتماعي Hayness ثم Fisher وUry كمثلين لمشروع هارفارد للتفاوض أواخر الستينات وبداية السبعينات، عرفت حركة الوساطة الأسرية بداية من الثمانينات مرحلة مأسسة مهنتها عن طريق التشريع القانوني والتكوين الأكاديمي وتصديق الشهادات في أغلب الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية (1970) كندا وبريطانيا (1980) وفرنسا وبلجيكا (1990)، أما الدول العربية فما تزال حديثة العهد بهذه الحركة.

الأسس الفلسفية والمبادئ الأخلاقية

فبخصوص الأسس الفلسفية، تتلخص أبرز الحقائق التي تنتسب بها روح وفلسفة الوساطة الأسرية في المظاهر التالية (Savourey، 2008):

- أهمية الأدوار المنوطة بكل عضو من أعضاء الأسرة وبالخصوص على مستوى وظيفة الأبوة والأمومة في التربية والحفاظ على استقرار الأسرة؛

- الوعي بالصراع كمحرك للتوترات والنزاعات لكن في المقابل كفرصة للتغيير في العلاقات الأسرية؛
- أولوية الحوار وبالخصوص ذلك الذي يكشف المستور ويسمح بالإنصات المتبادل والجواب المعلن والالتزام الفردي والمشارك، بمعنى الحوار الذي يساهم في تجاوز العنف الناجم عن سوء الفهم والتقدير؛
- الحاجة إلى فضاءات للمواجهة المباشرة بين الأطراف المتنازعة من أجل استعادة لحمة الروابط المتضررة المجروحة والمعطوبة؛

- الاعتقاد في الطاقات الإنسانية كقدرات قائمة الوجود يمكنها أن تعبر عن نفسها بكل استقلالية ومسؤولية مع ابتكار استراتيجياتها لحل المشاكل ومواجهة الصعوبات ولعب دورها في الأسرة والمجتمع؛
- أما فيما يتعلق بالمبادئ الأخلاقية للوساطة الأسرية، فالأكيد أن كل نشاط تحكمه بالضرورة مبادئ ومسلّمات ولا يكون محايداً بشكل نهائي. فالوساطة لا تشكل فقط تنسيقاً عالمياً للمعارف والمهارات بل هي كذلك إطار منهجي للعيش والحث على الحياة. فهي تتميز عن أشكال الضبط الاجتماعي الأخرى من قبيل الصلح والتوفيق Conciliation والتحكيم Arbitrage والحكم Jugement والخبرة Expertise وبالخصوص عن طريق شخصية الوسيط وأسلوب اتخاذ القرارات الحاسمة. وبهذا فهي تنبني على المبادئ الأخلاقية التالية (Savourey، 2008):

- المسؤولية، بمعنى مسؤولية الأشخاص كأفراد وكأصحاب وظائف أبوية وأسرية واجتماعية؛
- الحرية، بمعنى ترك الحرية الكاملة للمتنازعين في اختياراتهم لتفعيل آلية الوساطة وانتقاء الموضوعات الملائمة للنقاش ثم الحسم في نوعية قراراتهم ومحتوياتها؛
- الغيرية L'altérité، بمعنى قبول حضور الطرف الآخر كشخص لدينا معه مشاكل وخلافات (الشريك السابق)، يجب التواصل المتبادل والتداول المشترك بخصوصها قصد الوصول إلى حل مرضٍ.
تعدد التعاريف والأهداف والنماذج.

التعاريف

تكشف الأدبيات العلمية عن غياب تعريف عالمي موحد للوساطة الأسرية، حيث يلاحظ أن تعريفها يتراوح بين التنقيص على دور الوسيط وبين التركيز على غايات الوساطة وبين الدفاع عن الأسلوب العلاجي. وهذه أمثلة توضح ذلك ((Saint-yvers، 1999)؛ Tap، 2010)؛ Noreau et Amor، 2012):

- تشكل الوساطة العملية التي بواسطتها يحدد المشاركون المدعومون بشخص محايد أو أكثر، القضايا الخلافية بينهم بشكل يسمح ببلورة حلول توافقية تستجيب لرغباتهم؛

- تشكل الوساطة عملية تشاركية يشرف عليها طرف محايد لمساعدة المتنازعين على إيجاد تسوية مريحة للصراع بينهما؛

- تشكل الوساطة في حالة الطلاق عملية علاجية يوفر الوسيط من خلالها الجو الملائم لتواصل الزوجين والانتهاج إلى تسوية تلائم انتظاراتهما؛

- تشكل الوساطة العملية السرية التي يشرف عليها وسيط مؤهل ومحايد بشكل يسمح للزوجين بتسوية مرضية ودائمة لصراعهما عن طريق التفاوض.

رغم تعدد هذه التعاريف فالواضح أنها تنبني على خصائص مشتركة قوامها خلق أجواء مواتية لاستعادة لحمة الروابط الأسرية بين الأطراف المتنازعة. ونجمل أهمها في الآتي:

- الوساطة الأسرية عبارة عن تدبير للنزاعات؛

- الوساطة الأسرية عبارة عن عملية لتشجيع التواصل والحوار بين الزوجين المتنازعين؛

- الوساطة الأسرية عبارة عن آلية لبناء الثقة وإقامة التفاهم بين الطرفين المتنازعين؛

- الوساطة الأسرية عبارة عن عملية للتفاوض بين طرفين متنازعين يشرف عليها وسيط محايد؛
الأهداف

تتلخص أهداف هذه الممارسة التي أصبحت تعتمد كصيغة للتدخل السريع والفعال في المظاهر التالية (Savourey، 2008):

- تحيين الخلافات بين الأزواج وتهيئ الفضاء المريح للتفاوض قصد الخروج من النفق المسدود؛
- تسهيل التواصل بين الأطراف المتنازعة في جو من الإنصات والاحترام المتبادل؛
- تمكين كل طرف من التعبير بحرية عن مشاعره ومخاوفه وانفعالاته ورغباته وانتظاراته؛
- استعادة السلطة المتوازنة بين أطراف النزاع مع الأخذ في الاعتبار حاجات كل طرف؛
- البحث عن استراتيجيات ووسائل ملموسة للخروج من المأزق والأبواب الموصدة.

النماذج

الواقع أن نماذج الوساطة الأسرية التي تحكمها سلسلة من القواعد والاستراتيجيات قوامها تأطير سلوك الوسيط وتعيد مراحل ممارسة الوساطة لتلخص في الأبعاد التالية (Saint-yvers، 1999؛ Noreau et Amor، 2012؛ Savourey، 2008):

النموذج النفسي-القانوني الذي يستلهم أسسه من نموذج الوساطة في ميدان علم نفس الشغل لصاحبه Coogler (1979) الذي يعتبر مؤسس الوساطة الأسرية. وهو نموذج يبنى على فض الصراعات البيئشخصية والتي تنتهي بالطلاق والانفصال وتقف وراءها في الغالب الإدراكات الخاطئة والانفعالات الحادة والسلوكات السلبية والتواصل الناقص بين الأزواج، فضلا عن أنشطتهم وحاجاتهم وقيمهم المتعارضة. ورغم ما يوليه هذا النموذج من أهمية للانفعالات والمشاعر كعوائق لحل النزاعات، فهو يركز أساسا على الفكر المنطقي العقلاني. فالوسيط يقوم في هذا النموذج بدور الميسر المحايد الذي يدفع في اتجاه تسوية النزاع عن طريق التفاوض.

النموذج النفسي-الاجتماعي الذي يستلهم مقوماته من نموذج الوساطة في مجال سوسيولوجيا التنظيمات لصاحبه Hayness (1983) ويوظف في تدبير النزاعات المرتبطة بالطلاق والانفصال. فهو يركز على إيجاد تسوية مرضية للنزاع بين الزوجين عبر التفاوض مع الأخذ في الاعتبار أهمية الحياة الانفعالية ومشاعر التوتر والغضب في هذه التسوية. ويتحدد دور الوسيط بهذا الخصوص في تهيئة الجو الملائم لجمع أطراف النزاع في مكان واحد من أجل التواصل المتبادل والبحث عن حل متفاوض عليه للمشكل.

النموذج الاندماجي- التكاملي الذي يستلهم مرتكزاته من المقاربة الاندماجية التي تعتمد في العلاج النفسي الأسري لكل من Irving و Benjamin (1980). وهو يسمح للوسيط بدمج عناصر مقاربات أخرى حسب حاجات الزبناء دون أن يتخلى عن توجهه النظري المرجعي المتمثل في محاولة إدماج الأطراف المتنازعة في سياق للبحث عن تسوية مرضية.

النموذج التفاوضي-المبدئي لكل من Fisher و Ury (1982)، الذي يشكل المرجع الأساسي للوساطة الأسرية لكونه يبنى على مصالح الأشخاص عوض مواقفهم ويرجح كفة الحل الوسط عن الحلول الأخرى. وتحدد أهم مقوماته في المبادئ الأربعة التالية:

- معالجة خلافات الأشخاص ونزاعاتهم بشكل مختلف؛
- التركيز على مصالح الأطراف المتنازعة وليس على مواقفهم؛
- ابتكار وتخيل الحلول التي توفر المنافع المشتركة لأطراف النزاع؛
- ضرورة استخدام معايير موضوعية حينما تتفاقم النزاعات والخلافات بين الأزواج؛

2. الاختيارات المنهجية وتقنيات الوساطة الأسرية

تشكل الوساطة الأداة المنهجية التي تساعد في حل كثير من مشاكل الأسرة وتمزقاتها بفعل الطلاق وغيره. ولتوضيح أهم معالم ممارسة هذه الأداة في أرض الواقع نستحضر الأبعاد التالية (Savourey، 2008؛ Noreau et Amor، 2012؛ Saint-yves، 1999؛ Robert، 1997):

الكلفة والتمويل

كل مشارك في الوساطة مطالب بمساهمة مادية محددة. وإذا كانت مقابلة تحصيل المعلومات الشخصية تتم بالمجان، فإن تمويل مؤسسات ومصالح الوساطة الأسرية عادة ما يتم عن طريق المساعدات والتبرعات التي تقدمها قطاعات وجهات رسمية وغير رسمية.

الوظائف الأساسية

تكمن الوظائف الأساسية للوساطة الأسرية في كونها تشكل الآلية الفعالة:

- للتعبير والتواصل، بحيث يجب على أطراف النزاع الالتزام بالإنصات المتبادل في جو من الاحترام والسرية والتوقيع على أقوالهم التي يدونها الوسيط في وثيقة خاصة؛
- لإعادة الصياغة والبناء المشترك، بحيث تصبح الشكاوى والتوترات عبارة عن رغبات وانتظارات يجب إرضائها من خلال البحث عن تسوية مريحة للجميع؛
- للمواجهة والمجابهة، بحيث يعمل الوسيط على توفير الفضاء المناسب للتواجد والحوار المباشرين بين أطراف النزاع في جو من الحيادية والنزاهة والسرية والإنصاف؛
- آلية للتفكير والتأمل، بحيث يعمد أطراف النزاع إلى التهيئ الجيد لتصوراتهم بخصوص موضوعات الحوار وأسئلة التفاوض ونوعية انتظاراتهم ودورهم الأبوي أو الأمومي داخل الأسرة؛
- للابتكار والإبداع، بحيث يعمد الوسيط إلى توفير الجو المناسب الذي يسمح لطرفي النزاع بالحديث عن جميع الأسرار التي تحيط بعلاقاتهم وانفعالاتهم وقراراتهم؛
- لأخذ القرارات الحاسمة، بحيث أن ضمان سير الوساطة بالصورة المطلوبة يستدعي من الوسيط اعتماد مراحل متدرجة تمتد من تعيين الوضعيات والقضايا الخلاقية إلى استكشاف المنافع والمصالح إلى جرد الحاجات والرغبات إلى حصر لائحة الخيارات وأخيرا إلى الحسم في التوافقات الناجمة عن النقاشات ليدونها في وثيقة يوقعها طرفا النزاع.

أماكن الممارسة

تمثل المؤسسات والمصالح التالية أهم أماكن ممارسة تقنيات الوساطة الأسرية:

- داخل جمعيات العمل الاجتماعي والأسري (حماية النساء والطفولة والأسرة)، بحيث أن الوسيط العامل في هذه الجمعيات يكون متخصصا في العمل الاجتماعي الموجه أساسا لتسوية النزاعات المرتبطة بالطلاق والانفصال؛
- داخل الجمعيات العاملة في مجال المصاحبة الأسرية ومراكز الاستشارة الزوجية وحقوق النساء وقضاء الأسرة، حيث تتنوع هنا مهن الوسطاء: علماء النفس، قضاة، مستشارون في الأسرة والزواج...؛
- داخل الجمعيات المتخصصة في الوساطة الأسرية وبالخصوص في تسوية النزاعات الزوجية وتفكك الأسرة، والتي يدبرها في أغلب الأحيان متخصصون في مجال الوساطة تتنوع انتماءاتهم التخصصية وأنشطتهم المهنية،
- داخل مؤسسات ومصالح عمومية من قبيل الجماعات المحلية، صناديق الضمان الاجتماعي، جمعيات المجتمع المدني... التي يخضع مهنيوها للتفرغ للعمل في مجال الوساطة الأسرية.

صفات ومميزات الوسيط

تتلخص صفات ومميزات الوسيط الأسري الناجح في المظاهر التالية:

- البشاشة والقبول والكفاءة في الإنصات الواعي والتأويل السليم؛
- الحكمة والهدوء والتدبير الجيد للزمن والتعامل المرن مع المواقف الصعبة؛
- الإلمام الجيد بسياق التدخل والكفاءة في التحليل والفهم والاستنتاج والتنبؤ والتواصل الجيد؛
- الحيادية والنزاهة والشفافية والسرية والإنصاف لجميع أطراف النزاع؛

3. أهم الانتقادات

- يعتقد كثير من الباحثين أن التفاوض من أجل تسوية النزاعات الزوجية خارج النظام القضائي يقلل من فرص استتباب العدالة وترسيخها. وفي المقابل يرى باحثون آخرون في تكاثر ممارسة الوساطة إمكانية لمراقبة عمل الدولة في مجال العمل الاجتماعي عامة والأسري خاصة.

- يؤكد عدد من الباحثين على صعوبات الوساطة في مجال الاستجابة لتظلمات النساء المعنفات والمطلقات مثلا، بحيث أن آلية الوساطة عادة ما تساهم في تكريس سلطوية العنصر الذكوري وهيمنته أثناء التفاوض على حساب حقوق الإناث ومطالبهن المشروعة.
- مشكل حيادية الوسيط ونزاهته في علاقته مع أطراف النزاع وفي طبيعة القيم التي يتشبع بها وأهداف الوساطة في حد ذاتها. فالوسيط قد يزيغ عن مبدأ الحياد من خلال الميل نحو الطرف المؤهل أكثر للدفاع عن مصالحه أو النزوع نحو أهداف ضمنية محددة، وبالتالي الحد من حرية أطراف النزاع في التفاوض المبتغى من سياق الوساطة.
- تنوع أنشطة الوساطة الأسرية وممارساتها، بحيث ما تزال في حاجة إلى تدقيق مهامها وتعيد أدوارها وتقنين وظائفها عن طريق مأسسة مهنتها وتخصيص هويتها المعرفية والاجتماعية.

4. الآفاق المستقبلية

يصعب الحسم اليوم في مستقبل الوساطة الأسرية وكيف سيكون مآلها وتطورها؟ وهل ستعرف تزايدا في ممارساتها وأنواعها أم ستبقى عند مستواها الضعيف الذي لا تمثل فيه إجراء إجباريا؟ وفي أي إطار للتوازن ستأسس العلاقة المستقبلية بينها وبين الطلاق بمفهومه القضائي التقليدي؟ نعتقد أن الإجابة على هذه الأسئلة تستدعي النظر في قضيتين اثنتين هما اللتان ستحسمان مستقبل الوساطة الأسرية (Savourey، 2008؛ Moreau et Amor، 2012):

- مشاركة الأجداد Grands parents والأصهار Beaux parents، بحيث كثيرة هي التشريعات والأبحاث التي تؤكد على حق هؤلاء في ربط علاقات منتظمة مع أحفادهم من خلال تبادل الزيارات والمشاركة في جلسات الوساطة الأسرية.
- مشاركة الأطفال، بحيث هناك إقرار بأهمية إشراك هؤلاء في الوساطة الأسرية ولكن بأشكال غير مباشرة، تحكمها لقاءات خاصة بعيدة عن المشاركة الفعلية في سير التفاوض بين أطراف النزاع. بمعنى جلسات موزعة على فترات متغيرة قد تتم في بداية الوساطة أو في وسطها أو في نهايتها حسب الحالة وفي حضور أو عدم حضور الوالدين.

المراجع

- Noreau, P & Amor, S (2012). Médiation familiale: de l'expérience sociale à la pratique juridique (Site Web).
- Robert, CH (1997). Une technique ou un nouveau mode de régulation sociale, Actes de colloque de 10 Oct/ 1996, Geneve, Travaux CETEL, N° 49, Sep.
- Saint-yves, A (1999). L'essentiel en médiation familiale : une approche psychologique. Eds. Saint-yves inc, Québec.
- Savourey, M (2008). La médiation familiale. Journal du droit des jeunes, N° 268, 15-28.
- Tap, C (2010). La médiation: aspects théoriques et foisonnement de pratiques (Site Web).